

الحديث ذو شجون للدكتور زكي مبارك

الى الأستاذ إبراهيم المازني

صديق

حدثتنا مجلة آخر ساعة أنك سئلت عني فأجبت « لو أخلى زكي مبارك كتابته من الحديث عن زكي مبارك لكان أحسن مما هو الآن »

وبمثل هذا أجاب الأستاذ عباس العقاد حين سألته عني مجلة الإثنين ، فكيف تمّ التوافق بينك وبين صديقك فيما كتبنا عني ؟

أهو من باب توارد الخواطر ، ووقوع الحافر على الحافر ، كما كان يقال ؟ أم هو موصول بقصة السيو ديون ؟ ... ومن ديون ؟

هو رجل فرنسي صنع شراباً سماه باسمه وأعلن عنه في جميع البقاع الفرنسية ، فانسير في شارع ولا تدخل قهوة ولا تركب قطاراً إلا وجدت اسمه مسطوراً بأحرف كبيرة تهر العيون . ولم يكتف بذلك ، بل وضع لوحة مسجوعة بهذا الوضع الطريف :
Chez Dupont, tout est bon !

وقد هالني هذا الإسراف في الإعلان فسألت صديقاً فرنسياً عن السر فيه فأجاب :

ذلك رجل "نفساني" Psychologue هو يعرف المادة المتبعة في القهوات الفرنسية ، المادة التي توجب أن يسألك غلام القهوة عما تطلب قبل أن تجلس ، فتنتطق بأكثر الأسماء وروداً على باله وهو ديون !

والأمر كذلك فيما يتصل بحياتي الأدبية ، فقد قال الدكتور طه حسين مرة : إن أكثر أدب زكي مبارك في الحديث عن زكي مبارك . فلما سئلت الأستاذ العقاد عني وجد هذه العبارة في ياله فأجاب . ولما سئلت الأستاذ المازني عني وجدها في ياله فأجاب

وكذلك تعاد قصة السيو ديون في القاهرة بعد أن منتمها الناس في باريس

وهنا مشكلة لا أكتتمها عنك ، وهي الخوف منك ، ولكن كيف ؟

أنا لا أبالي بقدر الدكتور طه حسين إياي ، لأنني تقدمته بمئة مقالة ومقالة ، فن السهل أن يقول الناس إنه ينتقدني وفي نفسه أشياء وأنا لا أبالي بقدر الأستاذ العقاد إياي ، لأن بيننا أحقاداً تنشر في حين وتطوى في أحيان

الخوف كله من نقدك ، لأنك صديق حميم ، ولني أجدي من يتهكم بالتحامل حتى أطمع في أن يكذب الناس ما تقوله عني يضاف إلى هذا أنك مسموع الكلمة ، وأن الجمهور لا يظن إلى قدرتك على قلب الحقائق . وهل أنسى ما صنعت بنفسك وبصديقك العقاد ؟

كانت العيون ترى قبل عشرين سنة أنك طويل جداً ، وأن العقاد قصير جداً ، فشاء برك بصديقك أن تزعم أنك القصير وأنه الطويل ، وما زلت كيدي وتعيد حتى آمن الناس بقولك وظنوا أنك قزم وأن العقاد عملاق !

وبنو آدم يصدقون ما يسمعون وما يقرأون ، قبل أن يصدقوا ما يتحدثهم به العيون والقلوب
من أجل هذا أنقض حكمتك عليّ ، وأرجو أن تكف عني شرّاً وإن لم تكففه عن نفسك ، فما بي حاجة إلى صديق يسير على طريقة السيو ديون

وماذا تنكر من حديثي عن نفسي ؟ وماذا ينكر صديقك العقاد ؟ وماذا ينكر الدكتور طه حسين ؟

هل كان أدبك يا صديقي المازني إلا دورانا حول نفسك ؟ وهل كتب الأستاذ العقاد مقالاً أقوى من مقاله الأخير في مجلة الرسالة عن الأزمة التي صاوت روحه يوم احتلال العلمين ؟ وهل كتب الدكتور طه أقوى مما كتب في الحديث عن طفولته وصباه ؟ إن تصوير هموم النفس وما يحيط بها من غواف وآمال هو أوب صحيح جملة الكتب السماوية من شمائل الأنبياء ، فما العيب في أن يكون الحديث عن النفس من خصائص أدبي ؟ وهل يمكن أن أتعرّف إلى الوجود قبل أن أتمرّف إلى نفسي ؟

وهذه حماسة مشكورة ، وهي من بعض صفاتك الطيبات ، ومن الواجب أن تتلقاها بالترحيب ، ولكن هذه الحماسة نفسها تقابل بالإنكار حين تصدر عني ، كأن أقول في الرد عليك إن أول من سجل هذا الرأي في كتاب طبع ثلاث مرات هو المبارك لا العقاد

إن كتاب « حب ابن أبي ربيعة وشعره » طبع أول مرة أوائل سنة ١٩١٩ ، وهذا الرأي مدون في أول طبعة ، فهل نكره أن أثنى على نفسي فأقول إنى سبقت العقاد إليه بأكثر من ثلاثة وعشرين عاما ؟

وما أقول إنى كنت في بالك حين سجلت للعقاد ذلك سبق ، فمن المحتمل أن يغيب عنك أنى أول من أصدر كتاباً عن شاعر الغزل ، وأن كتابي كان النار لكل من تحدثوا عن ذلك الشاعر الفنان .

وأنا في الواقع أتعجب من استهانة الباحثين بالأمانة العلمية في هذا العهد ، فإيمر أسبوع بدون مفاجآت غريبة تتمثل في سرقات جريئة من مؤلفاتي ومقالاتي ، وأنا مع هذا أسكت لئلا يقال إنى أكثر من الحديث عن نفسي !

وإصرارك وإصرار صديقتك على أن هذا من عيوبى لن يصدنى أبداً عن النص الصريح بأن خلائق كثيرة تنهب آرائى علانية وتميش بها عيش السعداء

هل تذكر ما قال بعض الناس حين جازيت العقاد قتالاً ؟
بقتال ؟

قالوا إننى أثنيت على العقاد من قبل ، فكيف أهدم ما بنيت بالأمس ؟

والاعتراض صحيح ، ولكن المعارضين غفلوا عن أسباب ذلك البناء ، فقد أردت أن أشرح لطلبة السنة التوجيهية عناصر الكتب المقررة لمسابقة الأدب العربى ، وعند ذلك تذكرت أنى مدرس يعلّم تلاميذ ، ومن واجب المدرس أن ينزه أحكامه عن الأهواء

وأثنى على نفسي فأقول إن تلك الدراسات نفعت المتسابقين أجزل النفع ، وقد شكّا الدكتور عبد الوهاب عزام والأستاذ إبراهيم مصطفى من تأثير تلك الدراسات في عقول الطلاب ،

وهل كانت روائع الأدب في جميع الأمم إلا أحاديث نفسية ؟

ما هو سيفر أيوب الذى ترجم إلى أكثر اللغات ؟

ألم تكن أصالته في التعبير عن المخاوف الروحية ؟

وهل كانت أكثر القصائد الخوالد إلا إفصاحاً عن عواطف ذاتية ؟

قال ديكارت : أنا أفكر ، فأنا إذاً موجود

Je pense, donc je suis

ومن معانى هذه العبارة أن الشعور بالنفس هو أساس الشعور بالوجود

لا موجب للدائرة في محاورتك ، فأنت لم تنكر على الحديث عن النفس بمدلوله المعروف عند رجال الأدب ، ولا كان هذا ما أنكره الدكتور طه والأستاذ العقاد ، وإنما تنكرون الثناء على النفس ، وهذا يقع من حين إلى حين ، والثناء على النفس يضابق الناس حين يكون ثناء بالحق ، وإلا فمن الذى استطاع أن يكذبنى حين أثنيت على نفسي ؟

ولكن هل جال في خاطرك أن تبحث عن السر في هذه النزعة النفسية ؟

هل حاولت إدراك الأسباب للتكبر الذى أقع فيه كارهاً غير طائع ؟

لو أنك فملت لعرفت أنى لا أنتكبر إلا متحدثاً ، والتحدى زعة طبيعية تطوف بالنفس حين تفكر في دفع الجحود والمقوق وإليك شاهداً من مقالك بجريدة البلاغ في مساء هذا اليوم
« ١٨ - ٧ - ٤٣ »

في كلامك عن « قصة الأدب في العالم » أثنيت على رأى المؤلفين الفاضلين أحمد أمين وزكي نجيب حين قررا أن عمر بن أبى ربيعة لم يقتصر على معشوقة واحدة ، وإنما تبع الحسن أنى كان ، بخلاف ما كان عليه أمثال قبيس وكثير وجيل ثم تحمست للأمانة الأدبية والتاريخية فقلت :

« وهذا تفريق سبق إليه العقاد في كتابه (شاعر الغزل) وقد بسطه بسطاً وافياً وتوسع في بيانه . ولست أقول إن المؤلفين الفاضلين أخذوا هذا التفريق عنه ، فليس ما يمنع أن يتنباها إليه ، ولكنى أقول إن الأستاذ العقاد سبقهما إليه ، فمن الإنصاف أن يذكر له فضل سبقي ويسجل »
٢١٠٥

تحميه من الأباطيل ، وكانت حياتي شاهداً على صحة ما ابتغيت ،
فاستطاعت قوة أن تهمني ، ولا جاز في وهم مخلوق أن يراني
من أتباعه ، ولو كان أعظم العطاء .

أنا أخطب رجلاً هو الأستاذ المازني ، أخطب رجلاً يسره
أن يعلم أني أسيطر على شأبيب من الدواهي الملاحق ، وسأصحبها
على أعدائي حين أشاء .

إن أدبي من صنع الله ، وثقة الجمهور بأدبي من فضل الله ،
ولن أرتاب لحظة في أني أول كاتب وأول مؤلف وأول شاعر
في هذا الزمان

هاتوا برهانكم يا خصومي إن كنتم صادقين !
هاتوا برهانكم ، هاتوه ، إن استطعتم الاعتصام بخيوط الأحلام
أنا أثني على نفسي ؟؟

هو ذلك ، لأنني أسهر الليل في مسامرة قلبي ، ولأنني أؤمن
بأن الاعتماد على الماضي هو ثروة السفهاء من الوريثين
سنلتقي غداً وبعد غد ، وسيكون صرير الأقلام أخطر من
قعقة السيوف

وإلى اللقاء ، ولعله قريب !
زك مبارك

وقالا في دعابة إلهما سرجوان وزير المعارف أن يشير بأن لا تماد
تلك الدراسات في مجلة الرسالة ، بعد أن ظهر أنها تُكثّر من عدد
الفائزين !

بهذا الصدق في الاستكام الأدبية أنصفت نحو عشرين باحثاً
من رجال هذا الجيل ، وفيهم خصوم الداء يشرقون بريقهم
حين يسمعون اسمي

فأين من يملك من الصدق بعض الذي أملك ؟
المازني وحده يستطيع أن يجازيني صدقاً بصدق ، فقد وقف
بجانبى وقفة كريمة ، يوم قال الدكتور طه على صفحات الرسالة إن
كتاب النثر الفني كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكتاب
ولكن هل يستطيع الأستاذ المازني أن ينصف خصومه كما
أنصف أعدائي ؟

لقد يئست من إنصاف الناس ، فكيف لا أنصف نفسي ؟
في كتاب « ملامح المجتمع العراقي » ثناء على الأستاذ
المازني والأستاذ الزيات ، فهل قدمت نسخة من هذا الكتاب
إلى أحد هذين الرجلين ؟

عزّ على أن أظهر بمظهر من يمن على الصديق ، واستغفرت
عن تقريب الرسالة وتقريب البلاغ ، اكتفاء بما أنيت به على
نفسى في مقدمة الكتاب !

وأعجب العجب أني أهديت كتابي إلى رجل لا ينتظر مني
أى معروف ، ولا أنتظر منه أى جزاء ، ليكون في عملي ثمة
لوجه الله ولوجه الوطنية ، وهو رجل سبقنا جميعاً إلى التشرف
بخدمة العلم في العراق ، ولم يحفظ له مواطنوه بعض ما حفظ له
العراقيون

وأنا بعد هذا أسأل من يؤذيهم ثنائى على نفسى ، أسألم
متى يجاهدون في الأدب كما أجاهد ؟ ومتى يمانون في سبيل
الأدب ما أعانى ؟

أين الزميل الذى يقول إنه أحرص منى على الوفاء بحقوق
القلم البليغ ؟

وأين الشخص الذى يملك الزعم بأنه نفعى ؟ ومن هو المخلوق
الذى يتوهم أن له ديناً في عتقى ؟ ومن هو الروح الطاهر الذى
يطمع في السيطرة على شيطانية روجى ؟

كانت الغاية عندي أن أقم الدليل على أن لوطى وجودية

مجلس مديرية الخريمة

الإدارة الهندسية القروية

تقبل العطاءات مصحوبة بتأمين
ابتدأى قدره اثنين في المائة لغاية ظهر
يوم الخميس ١٢ أغسطس سنة ١٩٤٣
عن توريد ودق آبار ارتوازية بنواحي
أبيار مركز كفر الزيات - والرايين
مركز سمند - والشين مركز طنطا
وتطلب الشروط من إدارة المجلس
على عرض حال دمنة نظير دفع مائتى
مليم